رحلة بارتيما الى الحجاز واليمن والهند

(تابع ما قبلهُ)

اما عدن فاسم مدينة رأتها عيني وهي بين جبلين تطوقها الحصون المنيعة ويحيط بها سور حيث لا تكتنفها الجبال [1] . عدد بيوتها بين خمسة آلاف بيت وستة آلاف وتقام فيها سوق كل يوم نحو الساعة الثانية من الليل وذلك لشدة الحرّ في النهار . وعلى رمية سهم منها جبل فوقهُ حصن وفي سفحهِ ميناء ترسو فيهِ السفن فان عدن حاضرة اليمن ومجتمع السفن الآتية من الهند وفارس والحبشة . ومتى دخل ميناءها مركب صعد اليهِ رجال السلطان واستعلموا عن المكان الذي جاء منهُ وعن البضاعة التي فيهِ ثم نزعوا سواريهُ واشرعتهُ ودفتهُ ومرساتهُ واخذوا كل ذلك معهم حتى لا يسافر اصحابهُ قبل ان يدفعوا المكوس للسلطان

وفي اليوم الثاني من وصولنا عدن اتفق انني اختصمت مع رفيق لي فقال لي « يا نصراني يا كلب يا ابن الكلب » فاجتمع الناس حولنا واخذوني الى نائب السلطان لان السلطان كان غائباً عن المدينة واخذوا يتشاورون في قتلي لانهم ظنوا انني جاسوس من قبل المسيحيين . وكان سلطان اليمن يكره سفك الدماء فابقوني حيًّا الى ان يعرضوا امري عليهِ وزجوني في السجن وقيدوني بسلاسل لا يقل وزنها عن ١٨ رطلاً . وبعد ان بقيت في السجن ثلاثة ايام سمعت ضجة واذا بجماعة يبلغ عددهم نحو ٦٠ رجلاً قد هجموا على القصر وهم شاهرون سيوفهم يريدون الفتك بنا [2] وكان هؤلاء الرجال قد نجوا سباحة من المراكب التي قبض عليها البرتغاليون فلما سمعوا بنا هاجوا وهجموا على القصر فاقفل السجانون ابواب السجن لكن الهياج كان قد وصل الى الاحياء المجاورة فاسرع الناس الى سلاحهم واحاطوا بالقصر من كل جانب وهم يطلبون من نائب السلطان قتلنا لكنهُ سكّن هياجهم وصرفهم

وبعد مضي ٦٥ يوماً ارسل السلطان يطلبنا اليهِ فحُملنا على جمل والقيود في ارجلنا وبعد مسير ثمانية ايام وصلنا الى مدينة تدعى رداع حيث كان السلطان قد حشد جيشاً يبلغ

---

(١) قال بادجر لا تزال آثار السور والحصون باقية الى اليوم . وقال صاحب قرة العيون ان بارتيما سكن الزنجيلي وكان نائب عدن في زمن طوران شاه بن أيوب اخي صلاح الدين وذلك نحو سنة ٥٧١ للهجرة (٢) يظهر من كلام المؤلف انهُ كان معهُ سجين آخر لم يذكرهُ قبلاً

عدده ٨٠ الف مقاتل وهو يريد الزحف لقتال امام صنعاء وهي على نحو ثلاثة ايام[1] من رداع. فلما مثلت بين يديه قال لي من اين اتيت قلت « انا اجي من بلاد الروم يا سيدي انا اجي من القاهرة انا اجي من مدينة النبي ومكة وبعد انا اجي بلدك . كل رجل يكلّم انت سيدي شيخ . يا سيدي انا عبدك . انت تعرف سيدي انا مسلم » . فقال السلطان « قل لا اله الاّ الله محمد رسول الله » . فتلعثم لساني ولم استطع النطق بالشهادة اما خوفاً او لامر يريده الله فامر السلطان بحبسي فبقيت في السجن ثلاثة اشهر اطعم رغيفاً من الذرة صباحاً ورغيفاً مساء

وبعد يومين زحف السلطان بجيشه على صنعاء وكان معه عدا الثانين الفاً من الاعراب ثلاثة الاف فارس من غلمان الحبشة وهم حرسه الخاص وفئة جيشه . والاعراب لا يلبسون الاّ ثوباً من الكتان يأتزرون به وسلاحهم الدرق المصنوع من جلد البقر والحراب والسيوف والمقاليع يلفونها على رؤوسهم كالعمائم وينزرون فيها عيداناً ينطقون بها اسنانهم ويسمون الواحد منها مسواكاً[2] . وربما لبس الواحد منهم درعاً من الكتان المحشو بالقطن فيتقي به البرد وسلاح الاعداء . واخذ السلطان معه خمسة الاف جمل محملة خبزاً مصنوعة من القطن وكانت اطنابها من القطن ايضاً

وكان للسلطان ثلاث نساء بقيت واحدة منهن في رداع بعد سفر الجيش وكان معها ثلاث عشرة من الجواري الحسان لكن السمرة غالبة في الرانهن . واتفقت انا ورفيقي ورجل من العرب مسجونين معنا ان يتظاهر احدنا بالجنون لعلنا نجد بذلك سبيلاً الى الفرار من السجن . والقينا قرعة على ايّنا يفعل ذلك فاصابتني القرعة فتظاهرت بالجنون فكان يسير ورائي زمرة من الصبيان يرشقونني بالحجارة ويصيحون يا مجنون يا مجنون فكنت املأ ثوبي

(١) كان سلطان اليمن في زمن صاحب هذه الرحلة الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وامام صنعاء محمد ابن الامام المنصور . قال صاحب كتاب قرة العيون المذكور آنفاً وفي شهر صفر منها (اي سنة ٩١٠ وهي السنة التي كان فيها بارتيما هناك) تحرك الملك الظافر العامودة على صنعاء فاستعد لذلك فنزل بعض ولاته الى تهامة يجمع فيها جمعاً من العرب ... وفي الشهر المذكور توجه مولانا نصر الله الى صنعاء المأمورة باذن الله تعالى فاقام برداع العرش اياماً ثم سار الى ذمار ثم توجه منها الى صنعاء اليوم الثاني والعشرين من الشهر المذكور فحط على صنعاء في جموع كثيرة . انتهى . ولعلّ بارتيما رأى السلطان مدة اقامته في رداع العرش ولم يتمكن السلطان من فتح صنعاء هذه المرة بل رجع عنها وعاد الى حصارها مرة أخرى فافتتحها سنة ٩١٢ هجرية وانسر الامام محمد بن علي

(٢) هو عود الاراك (Salvadora) ولا يزال العرب يتسوكون به الى يومنا

حجارة ورميهم بها والملكة وجواريها يخرجن عليّ من النوافذ ويكلمني ويضحكن من اعمالي. وكانت الملكة تسر برؤيتي فلم تعد تسمح ان افارقها وامرت لي بطعام وشراب وقالت لي اضرب هؤلاء الاولاد فانك اذا قتلت واحداً منهم لا يكون الذنب عليك. وفي احد الايام مرّ بي رجل يهودي فضربته حتى كاد يموت وحاولت ان افعل مثل ذلك بآخر فرآني احد السجانين وكان على ما يظهر امد جنوناً مني فنادائي وشتمني فرميته بحجر فلما رأى ذلك مني اخذ يرميني بالحجارة هو والاولاد الذين كانوا حولي فاصابني حجران تألمت منهما كثيراً ولم استطع الجري لثقل الحديد في رجليّ فاسرعت على قدر طاقتي ودخلت السجن واقفلت الباب ووضعت وراءه احجاراً كبيرة وتحصنت فيه ولم اخرج منه يومين كاملين لم اذق فيهما طعاماً. فخشيت الملكة ان اموت فامرت بفتح الباب عنوة فكسروه واخرجوني وجاؤوا بعالمين من شيوخ المدينة ليتحققا امري ويعلما هل انا مجنون حقيقة او من اولياء الله فحكما عليّ بالجنون

ثم ذكر صاحب الرحلة ان زوجة السلطان عرفت من مراقبتها اياه انه ليس مجنوناً فنادته مرة وقالت له هل انت مجنون حقيقة يا يونس قال لها لا لست مجنوناً بل فعلت ذلك للتخلص من السجن. فلما عاد السلطان توسطت في الافراج عنه فامر السلطان بنزع القيد من رجليه ووهبه لزوجته فكان احد غلمانها. واستأذنها في السفر الى عدن لزيارة شيخ مشهور من اولياء الله (١) فاعطته مالاً وسيرته الى عدن فاقام فيها زمناً ثم خرج منها الى لحج وغيرها من مدن اليمن فوصف خيراتها وغناها وما فيها من الظلال والنخوم والفواكه كالموز (الدراقن) والرمان والسفرجل والتين والجوز والعنب

ومن المدن التي ذكرها المترانة قال في وصفها: — «هي مدينة في رأس جبل يوصل اليها بطريق طوله سبعة اميال وهو ضيق جداً لا يكاد يسير فيه رجلان معاً. والظلال فيها وافرة ومياهها كثيرة ولشدة مناعتها يحفظ السلطان فيها ذخائره وتحفه وهي مسقط رأسه ولقيم فيها احدى زوجاته. والذهب الذي في خزينة السلطان هناك يبلغ مئة حمل جمل واقول ذلك عن يقين لاني رأيت الذهب بعيني»

(١) جاء في تاريخ ثغر عدن انه كان في زمن الملك الظافر شيخ اسمه السيد ابو بكر بن عبدالله عيدروس المشهور بلقبه وزهده وكان له مقام كبير عند اهل عدن وقد بُني فيها مسجداً سمي باسمه وتوفي سنة ٩١٤ هجرية ولعله الشيخ الذي زاره صاحب هذه الرحلة

ومن المدن التي زارها يريم قال انهُ رأى فيها نوعاً من العنب الابيض لا عجم لهُ وهو من اطيب انواع العنب ورأى هناك كثيرين من الشيوخ الذين يتجاوز عمر الواحد منهم ١٢٥ سنة

وسار بعد ذلك الى صنعاء مدينة الامام وتعز وزبيد وذمار وغيرها من مدن اليمن ووصف ما فيها من الخيرات الكثيرة والمباني الجميلة وقال ان هذه المدن كلها تابعة للشيخ عامر (١) وانهُ كان يلقب بالشيخ لعدله وتقواهُ ولانهُ كان يكرهُ القتل فلم ينفذ حكماً بالموت على احد بل كان يامر بسجن من يحكم عليهِ بالقتل حتى صار عدد المسجونين المحكوم عليهم بالموت ١٥ الف رجل

ثم عاد الى عدن حيث اتفق مع ربان سفينة على ان يحملهُ الى بلاد فارس فاقلعت السفينة من عدن وبعد مسيرِ بضعة ايام ثارت عليها عاصفة في البحر فالتزمت ان تغير طريقها في وخمس وعشرون سفينة غيرها كلها محملة ثروة فدخلوا ميناء زيلع وبقوا فيهِ خمسة ايام يتقلبون سكون البحر . قال في وصف زيلع

« هي مدينة تجارتها واسعة في القنب والعاج ويكثر فيها بيع الرقيق من اسرى بلاد الحبشة فيرسلون منها الى بلاد فارس واليمن ومكة والقاهرة والهند . واهل زيلع في رخاء من العيش واحكامها عادلة جداً . والحموم والحبوب فيها كثيرة كذلك الزيت لكنهُ لا يستخرج من الزيتون بل من الجلجلان (٢) . والعسل والشمع فيها كثير جداً . والضأن هناك اسود الرأس والعنق وسائرهُ ابيض . ورأيت هناك صنفاً من البقر الوحشي اعدادهُ بعضهم الى سلطان زيلع . والسلطان عربي الاصل وعندهُ كثير من الجنود المشاة والفرسان »

ولما سكن البحر اقلعوا من زيلع الى بربرة ومنها الى جزيرة ديو في المحيط الهندي على مقربة من الهند ثم اقلعوا منها الى مسقط ومنها الى جزيرة هرمز . وقال في وصف هرمز

« هي جزيرة جميلة جداً تبعد عن البر نحو ١٢ ميلاً وعلى مقربة منها مغاوص اللؤلؤ يستخرجون منها اعظم الجواهر في الدنيا ويجتمع هناك في بعض الاحيان اكثر من ثلاثمئة سفينة فيها الغواصون فاذا اراد الواحد منهم ان يغوص لالتقاط صدف اللؤلؤ ربط كيساً في عنقهِ وحجراً في رجلهِ وغاص في البحر الى عمق ١٥ قامة فيجمع الصدف ويضعهُ في الكيس

(١) هو الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب المذكور آنفاً كان يلقب على ما يظهر بالشيخ عامر لتقواهُ

(٢) هي النقطة التي ذكرها وهو السمسم ولا يزال يعرف بهذا الاسم في زيلع وبلاد اليمن

ثم يحل الحجر المربوط في رجله ويصعد الى سطح الماء بحبل مربوط في السفينة »

ثم قص حادثة جرت لسلطان الجزيرة في ايامه قال « كان لسلطان الجزيرة احد عشر ابناً قبل ان اصغرهم كان احمق اما اكبرهم فكان من شياطين الجحيم . وكان للسلطان عبدان حبشيان كان يحبهما محبة الاب لابنائه وكانا على جانب عظيم من الفروسية والشجاعة . وحدث في احدى الليالي ان ابن السلطان الاكبر سمل عيني ابيه وامه واخوته كلهم الا الاصغر ووضعهم في غرفة واحدة واحرقهم جميعاً وجلس على كرسي الملك . وهرب اخوه الاصغر واختبأ في احد المساجد . وكان السلطان الجديد يخاف سطوة العبدين الحبشيين فاغرى الواحد منهما بقتل الآخر لكن احدهما شعر بذلك ودخل عليه في مخدعه وقتله وتحصن في القلعة وسمى نفسه سلطاناً الى ان هدأت الاحوال فجمع رجال المدينة وقال لهم لا حق لي بالملك لكنني فعلت ذلك لتخليص البلاد من الظلم . ثم جاء بابن ملكهم الاصغر واجلسه مكان ابيه »

وسافر بارتيما بعد ذلك الى بلاد فارس ودخل خراسان ووصف مدينة هراة فقال انها عاصمة خراسان وتجارتها واسعة جداً لاسيما في الحرير والراوند[1] . ثم سافر منها الى شيراز فقال انها غنية جداً فيها الفيروز والبلخش واللازورد والتوتيا والمسك . ولقي في شيراز تاجراً خراسانياً رآه قبل ذلك في مكة فعرفه التاجر وقال له الست انت يونس الذي لقيته في مكة ماذا جاء بك الى هذه البلاد هلم معي فاني احب ان اتخذك رفيقاً تسير معي اينما سرت . فاتفقا على ذلك واقاما في شيراز اياماً ثم ارتحلا الى سمرقند . وقال في وصفها

« هي مدينة كبيرة في عظم القاهرة واهلها بيض الالوان ولسلطانها جيش يبلغ عدده ٦٠ الف فارس كلهم شجعان . ولم تتوغل في البلاد كثيراً لان الصوفي[2] كان قد اكتسحها ووضع السيف في رقاب اهل السنة ولم يبق الا على اهل الشيعة »

وقال له التاجر مرة احب ان ازوجك بابنة اخي واسمها شمس فاخذه الى بيته واراه اياها فوجدها جميلة جداً وتظاهر بالميل اليها . ثم سافر بعد ذلك هو والتاجر الى هرمز ومنها الى بلاد الهند

---

(١) كانت هراة عاصمة خراسان في ذلك الزمن وسلطانها حسين مرزا من نسل تيمور

(٢) هو الشاه اسمعيل الصوفي الذي ورد ذكره في مقالات الشيخ في بعض اعداد السنة الماضية وفي تاريخ سلاطين آل عثمان في المجلد الرابع والثلاثين من المشتطف